تعقيبات

للأستاذ أنور المعداوى

حول العبقرية والحرمان :

أستاذى ... .

قرأت لكم مقالا تحت عنوان « العبقرية والحرمان » بأحد أعداد الرسالة الزهراء . وكنت كعادتى كلما تابعتك ملهماً مبدعاً حتى أننى قرأت المقال مرات ومرات ، واستوقفت نظرى بين ثنايا كلمات كتبتها عن « بيرون » الشاعر الإنجليزى العظيم عندما تقول : « إن بيرون فى الأدب الإنجليزى قد أبدع أعظم آثاره الفنية وهو يتقلب فى بحبوحة من العيش لا تنهيأ إلا لمن كان فى مثل مركزه الاجتماعى العظيم » .. وفى الوقت نفسه تحاول السيدة أمينة السعيد فى كتابها عن شاعرنا هذا ، وهو أحد أعداد سلسلة « اقرأ » أن تنقض هذا الرأى وأن تقول إن التاريخ الأدبى لم يخلد « بيرون » وأشعاره إلا يوم أن كان يعيش تحت ظلال الحرمان ! وإليك هذه السطور التى كتبتها عنه : « كانت طبيعة بيرون الحقة إذا حزن وتألم فاض بالشعر قلبه فى سهولة وقوة وعذوبة ، وإذا سعد وهدأت ثورته هدأ الوحى بهدوء نفسه وضعف بضعف ثورته ، وظل على هذا الحال طوال حياته ، فسجلت أيام الشقاء أروع قصائده وأكثرها خلوداً » . إلى هنا ينتهى رأى الكاتبة الأديبة . وهو رأى يحتاج إلى التأمل العميق والحكم بأى الرأيين أصوب — إننا نقدس حرية قلمك ونزاهته ، ونأمل أن يكون الرد على صفحات الرسالة .

عبد العال حسن إسماعيل
(معهد نزاد الأول بأسيوط)

أشكر للأديب الفاضل كريم التقدير وأدب الخطاب ، وأسجل إعجابى بهؤلاء الشباب المخلصين للأدب والفن من طلاب الأزهر فى هذه الأيام ؛ وإنها لظاهرة تبشر بالخير فى مجال خلق جيل جديد يقرأ ويناقش وينهل من ينابيع المعرفة فى شتى فنون الفكر وألوانه — من حق هذا الجيل الجديد أن أحييه على صفحات « الرسالة » ، لأن الكثرة الغالبة فيما أتلقاه من رسائل ممتازة هى من طلاب الأزهر لا من طلاب الجامعة !

بعد هذا أجيب الأديب الفاضل بأن هذه الكلمات التى جرى بها قلم السيدة أمينة السعيد تنطبق كل الانطباق على طبيعة شاعر مثل هنريك هاينى ، وتبعد كل البعد عن طبيعة شاعر مثل لورد بيرون . ولقد كنت أرجو أن يكون رأى الأديبة المصرية قائماً على دراسة شعر بيرون مرتبطاً بحياته ومقترناً بطبيعته النفسية والخلقية ، ولو أجهدت نفسها فى هذه الدراسة لخرجت برأى غير الرأى ونظرة غير النظرة ، ولكن كتابها فى ميزان أدب التراجم لا يعدو أن يكون قصة طريفة تدور حوادثها حول شخصية بيرون ومغامراته وزواته ورحلاته ! ومعنى هذا أن الدراسة النقدية لشعره لم تحظ من قلمها بنصيب ، وكذلك الدراسة النفسية فى مجال الكشف عن صلة الفن بالحياة ، هناك حيث تكون النفس الإنسانية أشبه بمرصد يسجل كل ما يتلقاه من هزات القلب والشعور !

شخصية بيرون الأدبية والإنسانية شخصية جلية المعالم واضحة السمات . لقد انحدر من صلب أسرة ورث فيها الشذوذ فى النفس والخلق أبناء عن آباء ، ولكن بيرون خرج إلى الدنيا وفى دمه مزيج من شرور الوراثة ومواهب الفنان ، ولقد خففت هذه من حدة تلك فلم يلق الحياة بالشر المطلق الذى يلقى الإحساس بالألم العارض والهم العابر ووخزات الضمير .. كان جل همه أن ينشد متعة النفس وقوة الجسد وزوة العاطفة ، لا ينيه من دنياه غير اللحظة التى يعيش فيها وتعود عليه بكل ما يشتهيه الرجل الجميل المدلل الذى لا يد عينيه أبداً إلى أمام ! وفى محيط الشر والإثم كان « الفنان » الذى فى دمه يستيقظ من حين إلى حين ، ومن هنا كان بيرون يتألم ولكنه الألم العابر كما قلت ، يطرق بابه ليرتد عنه بعد لحظات أمام جموح الشباب المترف الذى يحطم فى سبيل غايته كل ما تعارف عليه المجتمع من حدود وقيود ! الألم فى حياة بيرون لم يكن ألماً بالمعنى المفهوم عند شاعر مثل هاينى ، ولكنه كان لوناً من السخط على الحياة يزول وينقضى حين تفسح الحياة طريقها للفتى المدلل ليمضى إلى غيه وهواه ! وما أكثر ما تنحت الحياة عن طريقه وهيأت له كل ما يصبو إليه من تحرر وانطلاق ، وفى رحاب هذا التحرر كانت تنبت أغانيه... حلوة ، صافية ، عميقة . لقد خلق بيرون وفى دمه طبيعة بلبل لا يجيد التغريد إلا إذا رأى الجو صحواً والسماء صافية ، فإذا امتلأ الجو بالغيوم وتوارى النور خلف حجب الضباب صمت منه بعض الثناء ، ولكنه الغناء المختنق ينبعث من أوتار حنجرة

ساخطة ، ثائرة ، تنعى هذا الظلام الذى لا يتيح لها أن تصدح كما تشاء ! من هذه الكلمات الموجزة تستطيع أن تضع يديك على مفتاح هذه الشخصية التى لا غموض فيها ولا تعقيد . . . يقول بيرون : « لقد هببت من نومى ذات صباح فألفيتنى مشهوراً بترديد اسمى على كل لسان » ، قالها بعد أن دفع بديوان شعره الأول إلى أيدى الناشرين فدفعوا باسمه إلى السماء ، وكان ديوانه هذا الذى حقق له أسباب الشهرة والمجد والخلود هو « تشايلدهارولد » ، وإنه فى رأى الفن لخير أعماله الأدبية على الإطلاق ! . . . لقد جادت قريحته الوثابة بهذا الشعر فى لحظات الصفاء ، هناك حيث قضى بيرون فى ربوع الشرق أجمل أيامه وأسعد لياليه : كأس خمر معتقة ، وقلب غادة خفاق ، وذهب يسيل بين يديه ، وزورق يخر به عباب البحر إلى أثينا وأزمير وسالطة واستانبول ، وهذه هى الحياة . . الحياة التى كانت تفجر الشعر فى أعماقه تفجيراً ، وتهدى إلى عشاق الأدب والفن أروع ألحانه وأعذب أغانيه ، هناك فى « تشايلدهارولد » !

وإذا ما تردى بيرون فى هوة الإثم والفسق والفجور سمدت نزواته وسمد فنه وسمد قراؤه .. إنها لحظات الصفاء بالنسبة لرجل يرى السعادة فى إشباع رغبات الجسد ، ولو تركزت هذه الرغبات الجامحة الشريرة فى شخص « أوجاستا » أخته من أبيه . . ومن هذه النزوة المحرمة فى شرع العرف والسماء يتدفق إبداع بيرون فى « عروس أبيدوس » ، وهى القصة الشعرية التى تصور قصة الهوى الآثم بين « زليخا » وأخيها « سليم » أو قصة الهوى الآثم بين « أوجاستا » و « بيرون » على التحقيق ! صحيح أنه سجل أله المنبعث من وخز الضمير على ما اقترف من إثم فى بعض شعره ، ولكن الحقيقة التى بقيت لنا من شعره وحياته تؤكد لدارسيه أنه لم يكن يفرغ من آلامه المثابرة حتى يعود إلى لذاته الدائمة ، فيسهب ويبدع هنا ويوجز ويفتر هناك .. يسهب حيث تطول اللذة ويوجز حيث يقصر الألم ، وما الفن إلا انعكاس صادق من الحياة على الشعور .

إن العبقريات كما سبق أن قلت صادق : بعضها يتوهج فى ظلال الترف والنعيم ، وبعضها يتأجج فى وهاب الفاقة والحرمان ، وبعضها يخبو بريقه إذا ما انتقل من حال إلى حال .. ومن البعض الأول كان بيرون ، ومن البعض الثانى كان هاينى ، ومن البعض الثالث كان جوركى ، ولعل فى هذه العجالة ما يهدى الأدبية المصرية إلى معالم الطريق !

الى صديقى الفنان المجهول :

رسالتك القوية الروح تقلقنى إلى عالمك .: إن عالمك كما بدا لى من خلال كلماتك يزخر عليه الإنسانية بجناح من وقدة العاطفة واشتعال الوجدان . لقد ناديتنى بهذه الكلمات العميقة : « أخى فى الفن ، أخى فى النقد ، أخى فى العروبة ، أخى فى الإسلام ، أخى فى سماوات الفن الإنسانى الرفيع » .. وشاء ذوقك المرهف أن تضفى على قلمى المتواضع من الثناء الجم ما لا طاقة لى على ذكره !

لماذا آثرت ألا تذكر لى اسمك ؟ إننى أود أن أعرفك أيها « الإنسان » .. ويسرنى أن تبعث إلى بشىء من إنتاجك لأراك رأى الفكر حين يعز على أن أراك رأى العين !

تسألنى ما هى الأبحاث التى تتلمذت إلى الأعماق وحازت قبولى ، وما القصص الذى قدرته وما التراجم والدواوين والأبحاث النقدية التى أرى فيها ومضاً من فكر ونوراً من حس ، وإدراكا للقيم الحقيقية دون التفات إلى البهرج الزائف والتلألؤ المصنوع؟

معذرة إذا قلت لك إن هذا السؤال يحتاج إلى شىء من التحديد ، فأنا لا أدرى إذا كنت تريد الجواب عن هذا كله فى نطاق الأدب العربى أم فى نطاق الأدب الغربى أم فى نطاقهما معاً ! إننى فى انتظار رسالة منك تحدد لى فيها ما تريد الجواب عنه.

ولك ياصديقى المجهول تحية ملؤها الود الخالص والتقدير العميق

لحظات مع ايليا أبى ماضى :

قلت فى عدد مضى من « الرسالة » إن فى شعر المهجر شيئاً يثير إعجابى ، وأوثره بتقديرى ، وأشعر نحوه بتجاوب الفكر والعاطفة ... ذلك هو عمق الصلة بين الفن والحياة ! الحياة فى شعر المهجر نفس عميق ، وحس رقيق ، ونبع شعور متدفق . ولعل هذه القصيدة التى صدح بها أبو ماضى فى الحفلة التكريمية التى أقيمت له فى دمشق من خير ما قرأت إشراقة لفظ ، ورحابة أفق ، وأصالة شاعرية ... عنوان القصيدة « عجباً لقومى » ، ومطلعها هذه الأبيات :

هى الشام مهداً وكتاباً والفوطة الخضراء والحرابا
ليست قباباً ما رأيت وإنما عزم تمرد فاستطال قبابا
فالثم بروحك أرضها ثلثم عصوراً للعلى سكنت حمى وترابا

هنا وفى كثير من شعر أبى ماضى تلمس الصدق فى الفن كما تلمس الصدق فى الشعور ، وحسب الشاعر المطبوع أن يعبر عن وقع الحياة على وجدانه فيصدق فى التعبير ، وحسبه أن تمر به

التجربة الشعورية فيسجلها فى صدق وأمانة ، وحسب الناقد أن يقنع بمظهر الصدق الشعورى فى تلوين الصورة ، وأن يشيد بعد ذلك مظاهر الصنعة الفنية فى إبراز الإطار ! أرأيت إلى التناسب النادر بين ضخامة اللفظ والمعنى والخيال فى البيت الثانى ، وإلى قوة الوثبات التعبيرية والنقلات الموسيقية فى البيت الثالث ؟ إن الإيقاع هنا يتعاون مع التعبير فإذا الشعور ينساب مع رنين الكلمات ويهتز تجاوباً مع درجات السلم الموسيقى : فالثم بروحك أرضها — نلثم عصوراً للعلى — سكنت حصى وثرايا .. إن التوزيع الإيقاعى هنا أشبه بتوزيع الضوء فى يد مهندس فنان !

وانظر إلى هذا التوزيع الممتاز مرة أخرى حين يخاطب « بردى » بهذه الهمسات :

روح أطل من السماء عشية فرأى الجمال هنا فتن فذابا
وصفا وشف فأوشكت ضفافه تنساب من وجه به منسابا
بردى ذكرتك للطاشى فارتووا وبنى الهوى فترشفوك رضابا
مرت بك الأدهار لم تحبث ولم تفسد وكم خبث الزمان وطابا

وإذا ما انتقل أبو ماضى من مناجاة « بردى » إلى مناجاة « شهيد ميسلون » نقلك معه من أفق إلى أفق .. إن صوته الهامس هناك قد بدأ يعلو هنا فى نبرات قوية صاخبة ، وكذلك موسيقاه . إنها لم تعد تلك الأنغام الهادئة الوديعة التى تنطلق من ناى أشبه بناى الرعاة ، ولكنها تستحيل هذا أنغاماً أخرى تهز مسامعك منها ضربات موسيقية عاصفة ، كتلك التى تطالعك من « صوتانة » ليتهور فن قبل أن تشرف على الانتهاء :

إنى لأزهى بالفتى وأحبه يهوى الحياة مشقة وعذابا
ويضوع عطراً كلما شد الأسى بيديه يبرك قلبه الوترايا
ويسيل ماء إن حواه فدفد وإذا طواه الليل شع شهابا
وإذا المواصف حجبت وجه السما
جعل المواصف للسما أسبابا

هنا لون من الغناء ، ولكنه الغناء الحماسى الملتهب الذى يتلاءم وشعر الملاحم ، وهكذا يكون الشعر : همسا فى مواضع الهمس ، وحرقة فى مواقف الحنين ، وارتفاع نبض وجهرة صوت فى لحظات التوهج والتوثب والانطلاق ! .. وقف طويلا أمام هذه الصورة الفنية التى اكتملت لها الأبعاد والزوايا فى مجال التسلسل التعبيرى : يضوع عطراً إذا ما عرك قلبه الأسى — يسيل ماء إذا ما حواه فدفد — يشع شهابا إذا ما طواه ليل — يجعل المواصف أسبابا للسماء إذا ما حجبت المواصف وجه السماء ... إن الشاعر هنا لا ينظم فحسب ، ولكنه يشرف من قمة الفن على الحركة النفسية فى شعره ، كما يشرف الجندى البارع من فوق منصته على حركة المرور فى ميدان يموج بالمارين !

بعد هذه المناجاة الحارة لشهيد ميسلون يضرب أبو ماضى بجناحيه القويين فى أفق آخر ، حين يعرض لموقف العرب المتخاذل من القضية الفلسطينية ... ومعذرة إذا ما اقتصرت على ترديد أبياته فى هذا المجال بينى وبين نفسى لأن قلم الرقيب هناك ! حسبى أن أثبت هنا هذه الصرخات :

دنياك يا وطن العروبة غابة حشدت عليك أراقماً وذئابا
فالبس لها ماء الحديد مطارفاً واجعل لسانك مخلباً أو نابا
لا شرع فى الغابات إلا شرعها فدع الكلام شكاية وعتابا
هذى هى الدنيا التى أحببتها وسقيت غيرك حبها أكوابا

إن وراء هذا الشعر شاعراً جبار الجناحين مكتمل الأداة !

رأى فى ترجمة آلام فرتر :

فى جلسة جمعت بين نفر من أسرة « الرسالة » وزائرى ندوتها الأدبية ، دار حديث عابر حول الكلمة التى عقبت بها على رأى الأستاذ سلامة موسى فى ترجمة آلام فرتر للشاعر الألمانى جيته ... وكان التعليق الوحيد من الأستاذ صاحب « الرسالة » هو أن مد يده إلى أحد أدراج مكتبه ، ثم أخرج منه رسالة بعث بها إليه المستشرق الألمانى الدكتور جولياس جرمانوس حول ترجمته العربية لآلام فرتر . وتناولت الرسالة وقرأتها فإذا هى قطعة من التقدير العميق والإعجاب البالغ ، بترجمة يقول عنها الدكتور جرمانوس إنها تستحق منه خالص التهنئة على مطابقتها للأسلبين الألمانى والفرنسى ، مطابقة بلغت الغاية فى الأمانة والصدق وبلاغة الأداء !

ولم أجد بداً فى سبيل تحديد القيم ووضع كل شىء فى مكانه ، من أن أطلب إلى الأستاذ الزيات أن يأذن لى بترجمة هذه الرسالة التى فرض عليه التواضع أن تبقى فى مكتبه دون أن يطلع عليها الناس ... وفى العدد المقبل أقدم الترجمة العربية لرأى المستشرق الألمانى فى ترجمة صاحب « الرسالة » لآلام فرتر .

سر الأشجان ولوعة الذكرى :

لو علم الأستاذ كامل محمود حبيب أى جراح أثارتها فى نفسى قصته ، لتردد طويلا قبل أن يتفضل مشكوراً باهدائها إلى ... أيها الأديب الصديق ، لماذا بعثت بكلماتك من طوايا حلم دفنته ، أشلاء ماض جريح ؟ إن هذا الماضى الذى تهد يوماً فى سحيق عظامى ، ستجيبك أطيافه فى العدد المقبل وتناجيك رؤاه !